الأطفال ومعطياتُ العصر

عبد المجيد إبراهيم قاسم
mejeed40@yahoo.com

يشهد العالم تغيرات عديدة تشمل جميع نواحي الحياة ومجالاتها، تحوّل خلالها إلى قرية صغيرة، أبرز سماتها: الثورة العلمية والتفجُّر المعرفي، والتطوّر الهائل في تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال. وقد أفرزت هذه المعطيات تغيرات هائلة في طبيعة التعليم، والعملية التعليمية برمتها، وتبدلات جذرية في وسائط الثقافة وتقنياتها وأساليبها.

وكما فرضت هذه التطورات فكراً جديداً، فإنها فرضت كذلك الحاجة إلى مهارات جديدة، وآليات عمل جديدة للتعامل معها. والأطفال –هؤلاء البراعم الإنسانية– يتميزون – بطبيعتهم– بخصائص متفرِّدة، لعل أهمها: شغفهم بالمعرفة والاكتشاف، وسرعة تأثُّرهم وتفاعلهم مع ما يتلقّون من مؤثرات. وطفل اليوم لم يعد كطفل الأمس، إنه يعيش عصراً مختلفاً، وبمعطيات مختلفة، حتى إن بعض تساؤلاته تفاجئ الكبار، فتطول الزمان والمستقل والمجهول، والكون والعوالم الأخرى، وإلى أبعد ما قد يتخيله الراشد، مما يتطلب تربية مختلفة عن تلك التي لا تزال سائدة في أغلب مجتمعاتنا، وتفرض تعاملاً جديداً، يواكب المنجزات الحديثة، ويساير تأثيراتها المختلفة.

يقول د. (نبيل علي)[1]: "إن التقدّم الذي نشهده حالياً في جميع المجالات" قد ضيّق المسافة بين الطفل وبين العلم والتكنولوجيا،

بصورة تستوجب تربية جديدة، مغايرة تماماً للتربية القائمة حالياً". كما أن هذه التحوّلات أثبتت للقائمين على تربية الطفل، بأن التربية والتعليم والتثقيف لم تعد قاصرة على الأسرة والمدرسة فحسب، بل أصبح للتكنولوجيا الحديثة، وتقنياتها المتطورة" دورٌ مهم فيها. وإذا أردنا أن نفهم طفل اليوم، فعلينا أن نعرف أنه قد أصبح مشاهد تلفزيون قبل أن يكون تلميذاً، كما قالت عالمة النفس (ليليان لورسا)[٢].

لقد أصبح استخدام التكنولوجيا المعرفية –اليوم– ضرورة حياتية للطفل، إذ يسهم في تعليم الطفل أساليب الحياة الجديدة، واستكشاف علاقاتها، وتزوّيده بالحقائق عن الكون والطبيعة، وفي تنمية عمليات تفكيره المنطقي، كالاستقراء، والاستنتاج، والقدرة على النقد والمحاكمة، وتأمين الوسائل والأساليب المناسبة لتنمية الإبداع وتشجيع البحث والاستكشاف.

وحتى تستطيع النخبة المربية، مواكبة كلّ تلك التغييرات والتطورات، وتعمل على تأهيل الطفل تأهيلاً يمنحه المقدرة على التعاطي الأمثل معها، فإن عليها أن تبدأ بالسعي لتغيير أساليب التعليم، عوضاً عن أساليب التلقين والحفظ وتأطير العقول في قوالب جاهزة تقتل الإبداع، وتلغي المحاكمة والتقويم، أولاً. وأن تقرّ – ثانياً– بسيادة المفاهيم الثقافية الحديثة، واختلاف أشكالها وأساليبها ووسائلها، إذ إنها لم تعد قاصرة على القصص والأغاني والحكايات، بل إن كثيراً من المكتسبات المسايرة للتطوّر التكنولوجي، والمواكبة للأبعاد المعرفية، ظهرت في مجال ثقافة الأطفال، بل فرضت نفسها، من قبيل الأشكال الجديدة لكتبهم ومكتباتهم، والأقراص المدمجة، وشبكات المعلومات، والألعاب الإلكترونية. بالإضافة إلى الإنترنت، وما يرافقه من آفاق تعليمية واكتشافية جديدة، وفرص للتواصل وإنماء المهارات والمواهب.

كما أن من أهم المتطلبات: إغناء محيطهم بالمؤثرات الثقافية، ومساعدتهم في تطوير قدراتهم الذاتية، وتزويدهم بالثقافة العلمية، التي أصبحت –اليوم– أكثر من ضرورية، وغرس القيم والاتجاهات والمفاهيم، التي تتماشى مع المعطيات الحديثة في نفوسهم. ويضيف د. (سمر روحي الفيصل)، من جملة الأساليب في هذا المجال[٣]: "تشجيع الألعاب الابتكارية، والنموذجات التخييلية، والتعبير الحرّ، والتدقيق في الخيال العلمي، وفي النصوص التي تُحرِّض مخيّلة الطفل، وتبني الخبرة الخيالية السليمة لديه، والابتعاد عن تقييد خياله بالواقع".

إن أدب الأطفال، كأحد أهم المداخل لتكوين الوعي الثقافي للطفل، يسهم –إسهاماً

مفيداً- في إعداد الأطفال للمستقبل، إذ يسعى للارتقاء بمشاعرهم، وسلوكياتهم، وإطلاق قدراتهم إلى آفاق واسعة، في إطار إعداد شخصيات من شأنها التفاعل الإيجابي مع المستقبل. لذا وجب العمل على تطوير وسائل بثّ الأشكال المختلفة لهذا النوع من الأدب، والارتقاء بها. فإن الطفل يعيش اليوم في زمن تضاءل فيه تأثير حكايات الأمهات والجدّات، بشكل كبير، والتي كانت مصدراً شبه وحيد لأدبه فيما مضى.

تقول الكاتبة (سناء العطاري)[٤]: "يمكن لأدب الأطفال أن يعدَّهم للحياة في عالم الغد، بمتغيراته وتكنولوجياته المتقدمة. وأدب الأطفال، العام والخاص، بألوانه المختلفة، يقدَّم هنا لخدمة الحياة في مناخ المستقبل: المادة المعرفية، والمعلومات، والمهارات، والقيم، ما يعين الأطفال على التكيف مع المستقبل، والتحلّي بالمرونة، والتفكير العلمي، والقدرات الابتكارية والإبداعية اللازمة لمواجهة المتغيرات الجديدة".

كما أن خيال الطفل يؤدي دوراً مهماً في تطوير شخصيته، فكراً وتعبيراً وإثراءً للمشاعر، فإن المقدرة على التخيُّل تعدُّ من أهم سمات شخصية الطفل. وأدب الخيال العلمي - كأحد أهم الأشكال الأدبية المعاصرة، فضلاً عن كونه مجالاً حيوياً من مجالات أدب الأطفال - يشكّل الصيغة الأسهل، والوسيلة الأنسب، لتمهيد دروب المستقبل لهم، وإعدادهم إعداداً واعياً وسليماً. يعرِّفه د. (عماد زكي) بقوله: "قصص أو أساطير انطلقت من وقائع ومعطيات علمية محدَّدة، لتعبِّر عن طموح الإنسان في تحقيق المزيد من الاكتشافات والإنجازات".

ولعل أهمّ وظائف أدب الخيال العلمي تكمن في إثراء معارف الأطفال العلمية، وتهيئة نبوغ ملكاتهم الفكرية، وتنمية قدراتهم العقلية والإبداعية. يتابع (د. زكي) بالقول: "ليس هناك شكٌّ في أن تعميق الثقافة العلمية، وتحريض التفكير العلمي، وتشجيع الخيال العلمي، لدى أطفالنا، أصبح مهمة عاجلة ومقدسة" لا يجوز التواني عنها، أو

تأجيلها، لأن ذلك يعدُّ خيانة لمستقبل الأجيال القادمة".

إن ما يحتاجه طفلنا، لكي لا يكون خارج دائرة الزمن، وأكثر فهماً وإدراكاً لمقتضيات الواقع، هو مساعدته على التكيُّف مع المستجدات العلمية الحاصلة، وعلى تطوير قدراته في اكتساب المعرفة، واكتشاف طاقاته الكامنة. فالطفل إذ نمكّنه مفاتيح المعرفة، فإننا نمكّنه من أهم سلاح يستطيع به مواجهة المستقبل.ونحن إذ نتحدَّث عن العلم وأساليب التكنولوجيا، فإننا لا نعني الأمور المتعلّقة بالكمبيوتر والانترنت فحسب، بل نعني التطبيق والممارسة والقدرة على التوظيف أيضاً.

ولا ننسى، في خضم هذه التطورات المتنامية، أن نقرَّ بأن نتاجات الثورة العلمية والمعرفية الحديثة، إنما هي سلاحٌ ذو حدين، لها مساوئها، كما لها فوائدها. وأن ما يمكن للثقافة الإلكترونية الجديدة أن تحمله من خطورة على أبنائنا، لا بدَّ أن يدفعنا لتجنيبهم سلبياتها وأضرارها. فالنجاح في استخدام التكنولوجيا يتوقف على حسن استغلالنا وتوظيفنا لها.

ومن واجباتنا تجاه أطفالنا: إتاحة فرص الانفتاح على الثقافات العالمية، والتأكيد على الأبعاد الإنسانية في الحياة، وتدريبهم على لغة الحوار والمشاركة وتفهّم الرأي الآخر، لكي ينشأوا مؤمنين بتعدُّد الثقافات، وقادرين على التكيُّف مع الأهداف الإنسانية المشتركة. "اجتمعت الآراء على أن مصير المجتمعات، في عصر المعلومات، رهن بنوعية البشر التي يمكن أن تنتجها، من خلال تضافر مؤسساتها التعليمية والإعلامية والعلمية والثقافية. وهذه النوعية –بدورها– تتوقف بصورة أساسية على مدى نجاح هذه المجتمعات في تربية الطفل، بحيث يمكنه مواجهة تحديات الحياة في مجتمع المعلومات.. وبالتالي، دراسة متأنية ومتعمِّقة لعلاقة هذه التربية بتكنولوجية المعلومات، لتحديد الغايات، واستحداث الوسائل، من خلال التعرّف على التحدّيات المرتقبة، والفرص المتاحة".[٥] ❑

الهوامش:

١) كتاب العربي الشهري، الكتاب ٥٠، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ ، ثقافة الطفل العربي، مجموعة من الكتّاب. الطفل العربي وتكنولوجيا المعلومات، ص ٢١٨.

٢) كتاب العربي الشهري، الكتاب ٥٠، مصدر سابق. الطفل العربي ومأزق المستقبل، د. سليمان إبراهيم العسكري، ص ٨.

٣) أدب الأطفال وثقافتهم قراءة نقدية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، عام ١٩٩٨. تأليف: سمر روحي الفيصل، ص ١٣٨.

٤) القصة السورية، موقع مهتم بالقصة العربية، قسم: دراسات في أدب الطفل، أدب الأطفال والتربية الإبداعية.

٥) كتاب العربي الشهري، الكتاب ٥٠، مصدر سابق. الطفل العربي وتكنولوجيا المعلومات، د. نبيل علي، ص ١٩٦.

الثقافة.. مرآة الحياة وغذاء العقل والروح

جميلة محمد المحمد

✍ تُعرف الثقافة بأنها نتاج الإنسانية، ومجموعة خصائصه وصفاته الثابتة والمتحوِّلة عبر العصور، أو مجموع المعارف والأفكار، والفنون والآداب، والطقوس والعادات والتقاليد، والقيم والأخلاق..إلخ، وكلّ ما يتحصّله الكائن البشري من محيطه. وللثقافة جانبين، جانب معنوي أو روحي، وجانب مادي أو ملموس، وهنا كلما تغلّب الجانب المعنوي، أو (المعرفة)، على الجانب المادي، كانت الدلالة أكثر وضوحاً على التحضُّر والأصالة.

وتفيد (الثقافة)، في اللغة العربية، معنى الحذق والتمكّن، أو الإتقان والفهم والتهذيب. فيقال: ثقّف الإنسان، أي أدَّبه

وهذَّبه وعلّمه. كما أن لها العشرات من التعريفات، منها التعريف الذي قدَّمه العالم (تايلور)، بأنها: "ذلك الكلُّ المركب، الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفنّ والأخلاق والقانون والعادات، وغيرها من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع ما".

الثقافة هي ليست نتاج فرد أو مجموعة بشرية معيّنة، بل هي نتاج المجتمعات، وحصيلة النشاط الإنساني عبر الأجيال، ولذلك فهي تختلف -عموماً- من عصر لآخر، ومن مجتمع إلى آخر، وذلك بحسب أسلوب التربية السائد أولاً، وتبعاً للاهتمام الذي تحظى بها من قِبل هذا المجتمع، أو ذاك، ثانياً. إلا أنها، ورغم تنوّعها واختلافها، سواءً في المضمون، أو بحسب البيئة الجغرافية التي تنتمي إليها، فهي تبقى متشابهة -بسماتها وخصائصها- تشابهاً إنسانياً واضحاً.

أهمية الثقافة، وأهدافها

الثقافة قيمة إنسانية كبيرة في ذاتها، وهي تمتاز بتأثيرها الكبير في تشكيل الشخصية الإنسانية، وتوجيه نموِّها عقلياً وانفعالياً واجتماعياً، وبكونها أداة للارتقاء بقدراتها الإدراكية واللغوية والإبداعية المختلفة. وفي الوقت نفسه، فهي تمتاز بالأهمية ذاتها بالنسبة للشعوب، ومسيرتها، ولكونها وسيلة للتنمية، بمعناها الشامل، وأداة لبناء الحضارات، وتطوّر المجتمعات البشرية. لذلك، فهي تشكِّل الأساس المتين في بناء الفرد والمجتمع على حدّ سواء.. إنها تحفّز تفكيره، وتنمي مداركه، وتحرِّك مشاعره وأحاسيسه، وتستجيب لميوله الغريزية في التخيُّل والاكتشاف والتعبير. كما أن لها دوراً كبيراً في تربية الحسِّ الإنساني النبيل، وتكريس القيم السامية، وتهذيب انفعالات الإنسان، والارتقاء بحسّه الجمالي. وهنا تكمن القوّة التأثيرية الكبيرة للثقافة، ويكمن الاستثمار الأفضل للمجتمع البشري.

ومن مقاصد الثقافة وأهدافها أيضاً، أنها تسهم في تنمية العلاقات الاجتماعية الجيدة، وتكوين الاتجاهات الإيجابية تجاه المجتمع، وتنمية الإحساس بمشكلاته وقضاياه. كما تسهم في زيادة خبرات الإنسان، ومعارفه، عن الطبيعة والعالم والكون، وتعزّز لديه الإيمان بالحرية والمساواة واحترام الرأي الآخر، وتُتيح له الاطلاع على المخزون الحضاري للشعوب، في المجالات كافة.

خصائص المادَّة الثقافية، وشروطها

إذا كانت الأساليب الثقافية جادَّة في أن تطرق باب العالم برحابته، وتحقّق للإنسان نموّاً معافى، وأن تلبي احتياجاته المعرفية، والنفسية، والتواصلية، المختلفة، وتعبِّر عمّا

يختلج في نفسه من أفكار ومشاعر، فلا بدَّ أن تتوافر –في مادَّتها– عدَّة خصائص وشروط، تتعلَّق بالمحتوى، من جهة، وبالنواحي الفنية، من جهة أخرى. أي أن تحقِّق مجموعة من الاعتبارات، من حيث الشكل والمضمون، نتناولها باختصار:

أولاً– من حيث المضمون: أن تحمل الأفكار في –المادَّة الثقافية– أهدافاً إنسانية، وجمالية، وأخلاقية، تسهم بمجملها في الارتقاء بالإنسان، وتنمية وعيه، وشخصيته، وأن تكون قادرة على الالتصاق بوجدانه، والاستجابة لاحتياجاته الإدراكية والتخيّلية.

أما من حيث الأسلوب، فأن تتوافر –في المادة المقدَّمة– القيمة الفنية الجيدة، والبناء الفنيّ الجيد، وتتَّصف بالأساليب التي تلهب المشاعر الإنسانية الرقيقة، وتبعث على الخيال الموحي. إلى جانب الأسلوب المتميّز بالجاذبية والسلاسة، والخالي من التعقيد والغموض والتكلُّف، واللغة السليمة والمشوِّقة والممتعة.

ثانياً– من حيث النواحي الفنية: أن يكون الإخراج الفنيّ جميلاً وجذاباً، وباعثاً على المتعة، والرغبة في مواصلة التلقي. وأن يكون الشكل –في الموادِّ المطبوعة– أنيقاً وجذاباً، وأن يراعى فيها المستوى الفني الجيد.

وسائط الثقافة، ومصادرها

الوسيط في الثقافة هو كلّ أداة تُستخدم في تقديم المادَّة الثقافية، أو الأدبية، بأجناسها،

وتؤدي دور إيصالها للمتلقي.. وتتعدَّد هذه الوسائط بشكل كبير، بدءاً بالكتاب المطبوع، ووصولاً إلى وسائل الاتصال الحديثة، كالإنترنت، مروراً بالمجلة، والصحيفة، والتلفاز، والسينما، والإذاعة، إلخ.

ويصنِّف الدارسون وسائط الثقافة، بحسب النوع، إلى: الوسائط المقروءة، وهي أقدم وأهمُّ الأنواع، مثالها: الصحيفة، والمجلة، والكتاب. والوسائط المسموعة، مثل: الإذاعة، والمسجّلة، والأسطوانات. والوسائط المرئية المسموعة، التي تمتاز بدرجة عالية من التأثير، كالسينما، والفيديو، والتلفاز، وهي تتبوأ بمكانة كبيرة بالنسبة إلى روافد المنظومة الثقافية برمتها. وهناك وسائط ثقافية أخرى، تؤدي دوراً مؤثراً في الفكر والسلوك، وفي تكوين القيم والاتجاهات، كالمسرح، والمتحف، وغيرها.

لكي يصبح الإنسان شخصاً، بالمعنى التكويني، فإنه يحتاج إلى لغة وثقافة يكتسبها بفعل اتصاله وتفاعله مع المؤثرات المحيطة، مما يجزم أن "التثقيف" عملية اجتماعية مكتسبة، تتمُّ عبر مؤسسات اجتماعية، ينهل منها الإنسان ثقافته، كالمدرسة، والرفاق، ووسائل الإعلام، إلخ. إلا أن (الأسرة) هي أهم تلك المؤسسات على الإطلاق، كونها تلعب الدور الأكثر تأثيراً في نقل الثقافة، وبناء وتنمية شخصية الإنسان، إلا أنها ليست المصدر الوحيد في هذه العملية. كما أن وسائل الإعلام باتت -اليوم- تملك دوراً مؤثراً وكبيراً في حياة الأفراد والجماعات، وأصبحت منظومة متكاملة لصناعة وصياغة مفاهيم ثقافية حديثة، وممارسة فعل نشط في الحياة الثقافية. بالإضافة إلى التراث الشعبي -بفروعه ومكوِّناته- الذي يشكِّل مصدراً هاماً من مصادر الثقافة، إذ إن الأمة الراقية ثقافياً" هي الأمة التي تتمسك بتراثها وتحافظ عليه، وتسعى لتوظيفه في مجالات الثقافة، لأن التراث لا يمثل ماضيها فحسب، بل يمثل حاضرها ومستقبلها أيضاً، كما أنه يحقِّق لأبنائها المعرفة الثرّة في كل الميادين، وتشرّع لهم منبعاً من أغنى منابع الثقافة ومصادرها، سواءً المحلية، أو على المستوى الإنساني، فتعرّفهم بعادات الشعوب وتقاليدها المختلفة، والكثير من المعارف، وتسهم بالنتيجة في إعدادهم للحياة إعداداً جيداً، يليق بكينونتهم ووجودهم الإنساني❑